من تجارب الشعر

١
نهاية الأبطال

قصيدة فى خمسة أناشيد

[« وكان الملوك إذا أشرفت عليهم مناياهم أمروا بأن نفسهم أن يحملوا فى سفن ، ثم ترسل السفينة فى اليم منشورة القلاع تدب فى خشبها نار بطيئة المسرى . فاذا انساب بها زاخر التيار وهبت له الريح ، تأججت فى بدنها النار وطار فى أركانها شواظها . وكذلك يلقى البطل العظيم بين أحشاء الماء وجوانح الهواء قبرا . . . »

توماس كارليل (١٧٩٥ — ١٨٨١)

الأبطال وعبادة البطولة ، تعريب محمد السباعى]

توطئـــة

امتد العهد الوثنى فى البلاد الإسكندناوية إلى نحو سنة ألف للميلاد حين ثبّتت المسيحية أقدامها فى تلك الربوع . وهذه البلاد الشمالية تمتاز بمنظر الشفق القطبىّ الرائع ، والجليد الذى يغطى أراضيها معظم أيام السنة ، ونهارها الذى يمتد طول أشهر الصيف وليلها الذى يستمر طول الشتاء .

شهدت البلاد الإسكندناوية فى عهدها الوثنى عصور صراع ونزال مجدت فيها القوة والبأس ، وألهّت الحرب تأليهاً . تلك أيام الأبطال — الفايكنج — المحاربين الأشداء الذين بلوا فنون القتال وغامروا فى البحار على متون سفنهم الشراعية ، وأغاروا على السواحل الأوربية قاصيها ودانيها ، فألقوا الرعب فى قلوب أهليها وعادوا بغنائمها وأسلابها واستوطنوا بعض أقطارها . وكان الإسكندناويون — كغيرهم من أقوام الشمال فى جاهليتها — يعبدون آلهة متعددة كبيرها « أُودن » الإله الأب رب النصر والخلود ، الذى أعد للأبطال جنة عرفت باسم « وَلْهَلاَ » أى بلاط القتلى لا يدخلها إلا من مات

قتيلا . وكانوا يقربون للآلهة على المذابح قرابين من البشر — ولا سيما اسرى الحرب — حيناً ، ومن الخيول والثيران والكلاب والصقور أحياناً .

عرف الإسكندناويون فى عهودهم تلك بالقسوة والبسالة . وكان من عاداتهم أن البطل الذى غامر فى المعارك وألقى بنفسه فى المهالك فلم يَلقَ حتفه ، إذا أدركه الهرم ودهمه مرض الموت أشفق على نفسه أن يذهب بعد وفاته إلى عالم الأشباح السفلى ، فانتحر بطريقة غريبة عديمة النظير ؛ لكى ينال الخلود ويدخل « وهلا » فردوس الأبطال . فكان يسجَّى فى سفينة تزيَّن له وتحمّل بعدة حربه ومتاعه وأسلابه ، ثم تطلق فى عرض البحر بعد أن تضرم فى شراعها النار . وهكذا يقضى البطل الهرم الذى لفظته المنية فيما خاض من الوقائع العديدة تحبه بين الحرق والغرق ؛ لكى يصيب السعادة الأبدية التى يصبو إليها ، سعادة الحروب العظيمة والمآدب الفخمة فى جنة « أودن » .

والقصة الشعرية التالية من وحى بلاد الشمال فى جاهليتها ، وقد وصفت طرفا من حياة الفايكنج رسائهم على حقيقتها فى تلك الأزمنة الهمجية :

النشيد الأول : ميلاد

شَفَقٌ حائل يَجُرُّ ذيولا ... شفّ فى لُمْعَةٍ تلاشت نُصُولا
وصل الأرض والسماء ببحرٍ ... قد كساه الضَّباب شبه هَيُولَى

رسمته شمس الصباح شُعاعا ... زائفاً ، فاتراً ، نحيلاً ، مُضاعا
فى نهار جَهْمٍ مَداهُ شهور ... كل ساعاته تلوح وَدَاعا

فى أقاصى الشمال حيثُ الأراضى ... ترتدى الثلجَ حُلَّة من بَياض
وتهُبُّ الرياحُ تحمل قرًّا ... جمَّد الماء فى قلوب الغِياض

أنشأ الربُّ موطنَ الأبطال ... « اودنُ » الرب ذو الحمى المتعالى
وهداهم إلى القتال فنونا ... ودعاهم إلى الوغى والنزال

وأعدَّ الفـــردوس للشهـداء « وَلْهَلاَ » موئل السَّنا والهنـاء
لا ينـال الخلودَ فى مُنْتداها غيرُ رَهْـط قضى بسُوح الدماء

ما حياة الرجال غـــيرُ حِمام قد تسامَى إلى العُـلا بالأنام
والذى مات فى الفراش ذليـلا ليس أهـلا لدائم الإكرام

هكذا قُـدِّر النظام قـــديما حين كانت أرضُ الانامِ سَـديما
فمضت أعصرُ الزمن حِثاثاً وُمدامُ الحـروبِ تُحْيِى الرميما

وبِيَـوْمٍ صافى الأديم ، سعيد أشرق الدهرُ فى جَبين وليـــد
قد دعَوْهُ « سيغُـوْرد » لما رَوه أيمنَ الوجه فى ســـناء فريد

شبّ فى منبت الإمارة عزّا وارتوى من فيض الفروسة نَهْزا
فاذا ناهز الشبابَ زكيًّا بزَّ كلَّ الأقران فى الفضـــل بَزّ

فى ليـــالى الصفاء والأسمار أنشـــد المُنشِدون حول النار
قد رَوَوْا اخبار البطولة قِدْماً وحـديثَ الأمجـاد والأبرار

وفتانا أصغى بسَمْع وقلبٍ حالماً فى المَنـــام أحلامَ حَرْبِ
عقـد العَزْمَ أن يعيـدَ عهوداً للعـالى خلت بطعن وضَرْبِ

بلغ القصـدَ من فنون القتـال فى طعان القَنَا ورَمْى النبـال
وعنـاق السيوف تلمع وهْجاً ورِضابِ الفُؤوس عند النضـــال

فى صِراع الفِتْيان أحرز مَجْدَا وبراز الفُرسـان فاز وأرْدَى
وبساحِ الوَغَى أغارَ وجلَّى وأسالَ النجيع يُرْوى الفِرنْدا

حينما صال فى المَجال وكَرّا لابساً لأمة القتـــال ، أغرّا

يعصبُ الرأسَ مغفرٌ لمّاعُ ... وعطوفُ الشباب تهتز سكرا

خاله الناسُ من كُماة السماءِ ... زُمرةِ الخالدين أهل البهاء
حلَّ فى الأرض مرشداً لأنامٍ ... مارسوا فى الوَغى فنونَ العلاء

النشيد الثانى : قران

فكرةٌ قد تمثلتْ فى الخيالِ ... وتجلت بغير رَسْم مِثالِ
صَبَّها العقلُ نطفة عَذْراءَ ... من رَحيق الأهواء والآمال

وحباها من الأثير وجودا ... وكساها من الجمال برودا
وسقاها ماء الشباب صَبِساً ... فائضاً فى دَمِ الحياة خُلوداً

قد تروَّتْ من السماء بهاءً ... ومن الفجر روْعة وضياء
ومن الورد رقة وأريجاً ... ومن الخمر نشوة وصَفاء

واستعارت من النجوم عيونا ... شع منها نورٌ يُشيعُ فُتونا
ومن الزَّنْبَق النّديِّ خدوداً ... أودِعَ السِّحرُ فى جَناها فنونا

ومن الدُّرِّ ثغرَهَا الوَضّاء ... ومن الغُصْن قامة هَيْفاء
نُشِرَ الشَّعْرُ فوقها سترَ حُسْنٍ ... من خيوط التِّبْر المُشِعِّ سَناء

فإذا ما تجسمَّت بكِيانٍ ... وأطلت على رسوم الزمان
تَخِذَتْ شكلَ غادة وتبدَّتْ ... فى حَياء ورَوْنَق لِلعيانِ

بَرَزَتْ وسْطَ رَغْوة الدَّاماءِ ... كَكَعاب من غانيات الماء
والأواذِى تزفّها حاملات ... مُنْيَة الأرض ، مَنْزِل الظلماءِ

زُهرَةُ (١) اليونان ابنة الأمواج ... بُعِثَت فى الشَّمال غُرَّة تاجِ
دُعيت « إبْرُ نَهيلد » حين أضاءت ... مثل شمس فَرَتْ حجاب الدياجى

نشأت فى بحبوحة من نعيم ... مَعْ لِدَاتٍ كدُرٍّ عقد نظيم
هُيِّئَت للأمير خيرَ عَروسٍ ... من كرامٍ قد زُوِّجَت بكريم

مَحَضَتْهُ الودادَ أنقى شُعُور ... وحبته بحبها الموفور
فأقاما فى خَفْضِ عَيْش طويلا ... زينَةَ المجد والهوى والحبُور

النشيد الثالث : أسى

سُنَّةُ الدهر من قديم الزمان ... لا يموت الشُّجاعُ موتَ الجبان
لا يموت الأبيُّ فوق سرير ... صاغراً فى مذلّة وهَوَان

فاذا أخطأت حَشاه السِّهامُ ... وتحامَاهُ فى الجِلاد الحِمامُ
خاف أن يتركَ الحياةَ مَهيناً ... هَرِماً ، مضَّهُ الأسى والسَّقام

ميتَةٌ لا تليق بالأمجاد ... لم تَحِقْ بالكماةِ والأنداد
بعدَها تشقَى الروح فى ظُلمات ... من جحيم دَجا إلى الآباد

فى مَهاوى السكون والأشباح ... حيثُ لا ذِكرَ للوَغَى والسماح
لا ولا ذِكْرَ للهوَى وَصبايا ... خالدات قد طُفنَ بالأقداح

وأبو الخالدين « اودِنُ » أوْرَى ... للظَى الحرب فى الملاحم سعْرا
فى حِمَاهُ العلىَّ فوق الثريَّا ... حيثُ يجرى فَيضُ المجرة نَهْرا

أقام البراز للأبطال ... فى ميادينَ صولةٍ ونزال

(١) الزهرة : فينوس ربة الجمال .

ليس يَهْوِى الصريعُ إلا لِيحيا ... ويعيدَ الكرّات غير مبالِ

ثمَّ يَحْلو للأقوياءِ الطِّعان ... فى نعيم يَرِفُّ فيه الجَنَانُ
وإنتشاء بخمرة ورُضاب ... وأناشيدَ رنّمتها القيان

أىُّ سَعد بَدَا وأىُّ هناءِ ... فاق حُسْن الرؤى وطيب الرجاءِ
رُخصَت فى سبيله - وهو حلمٌ - ... زَهْرة العُمر والمنى من فداءِ

نَبِّئونى يا أيُّها الكُهَّانُ ... من حَبَتْهُم علومَها الأزمانُ
أخبرونى بكُنه أمرى ورُدّوا ... لى صوابى ، فإننى ولهان

إننى مشفقٌ حزينُ الفُواد ... هل أذوقُ الفناء بَعْدَ الجِهاد ؟
هل ألاقى الرَّدَى ذليلاً معنَّى ... حَتْفَ أنفى فى غير سُوح الجلاد ؟

من حياة الثَرَى بلغت عِتِيًّا ... بعد عمر مضى هنيئاً رضيًّا
قد تَقَضَّى ما بين حرب وحب ... ورجاءٍ أطل عَذباً نديًّا

ليتنى قد لقيت حُلو المنَايَا ... فى صِراع أفنَى عزيزَ البرايا
لم أَخَفْ رَقْدة الظلام خُلوداً ... لم أُكابدْ إذن عناء الرزايا

هكذا وَجَّه الأميرُ الخطابا ... فتلقَّى من الشيوخ الجوابا
أيُّها السيدُ المطاع المعلَّى ... خلَّد الدهرُ مَجْدك الغلَّابا !

قد عَلِمْنا مَشيئة الأرباب ... قدِّرَتْ منذُ مَبدأ الأحقاب
فدَعِ الكَمْدَ واطّرح إشفاقا ... إن نيلَ النعيم رَهْنُ الطِّلاب

إنْ أطالت بقاءك الآجال ... فستقضى كما قضى الأبطال
ليسَ بالسَّيف فى القراع ولكن ... فى ضِرام عَنَت لَهُ الأجيالُ

موتُ حرّ ما بَين نار وبَحْرِ ... يُطلِقُ النفسَ من شقاءٍ وأسرِ
ويُنيلُ الخلودَ أعذبَ وِرْدٍ ... أو يَغلو لأجلِهِ أىُّ مَهرِ ؟

النشيد الرابع : خلود

يا بلادَ الجليد ، أرْضَ الشَّمالِ ... إشهَدى اليومَ مِيتَةَ الأبطالِ
أوْقدى النَّدَّ فى المذابحِ ناراً ... واحرُقى الطيبَ فى رُؤوس التلال

قرِّبى التَّقدِماتِ فوق الصخورِ ... من خيولَ وأبقُرٍ وَصقورِ
قد أحبَّ الإلهُ ريحَ قُتارٍ ... تَتَعالى ذكيَّةً بالنذور

واخرُجى فى مواكب تَتَبارى ... زَفَّت القَرْمَ باسلاً مِغْوارا
بزُمور شَجيَّة وطُبُولٍ ... وتراتيلَ من شِفاهِ العذارَى

زيَّنوا مركباً طويلَ الشِّراعِ ... جَهَّزُوهُ كفارسٍ للقِراع
حمَّلوه من الغنائم وَسْقاً ... وسِلاحَ الوَغى وخيرَ المتاع

ثم سَجَّوْا «سِبغُورْدَ» فوق الدروع ... قد جَلَوْهُ كالشمس عند الطلوع
وإذا ما دَنا الأوانُ وشيكا ... أجّجوا النار فى سَوارى القلوع

أطلقوا فى الخضم زَيْنَ الجوارى [1] ... كلواءٍ هَفَا بنورٍ ونار
فتهادت على أواذِىّ جَزْرٍ ... بين تهليلٍ هزَّ جَنْبَ البِحار

تَبِعَتها القلوب والأحداقُ ... وأضاءت بنورها الآفاق
ومضت فى سنائها نحو موت ... كتمتهُ فى صدرها الأعماقُ

---

(١) الجوارى : السفن ، جمع جارية .

ثمّ سـعيداً أيا فتى الهيجاءِ قد وَرِثتَ الخلودَ بعد الفناءِ
هذه الأرضُ رددّت فى خشوعٍ : الوَداعَ الوَداعَ حتى اللقاء !

نشـيد

هـلى يا ربوع العـلا
والجـلال
هَيْكَل المُصطَفَيْن الالى
برزوا فى الوغى والقتـال
وأراقوا دما واستباحوا حِمَى من عدوَسما
فى النـزال
مجِّدى يا ذُرَى « وَلْهَلا »
مجدى البطـل الأمثـلا
زَيْنَ أهل الوغى فى الرجال

مجدى الفـارس المُجْتَبَى
فى الأنـام
من جَنَى فى العُلا الرتبـا
وسما بالفِعال الجِسـام
قد علا مَحْتدا وصفا موردا وأذلّ العِدى
بالحُسـام
وابتغى المجـد مُنْتَسِبا
وارتجـاه له سـبباً
للخـلود برُغْمِ الحِمام

هَزَأتْ روحُه العاتيـه
بالحتُـوف
فى حروب جرت داميـه
حصـدت أهلهـا بالألوف

لم يَهَبْ جمَّهـــا حينما أمَّهـــا نافثاً سمَّها
فى الصفوف
أخطأته القنـــا العـــاريه
فأعِـــدُّوا له الجـــاريه
كىْ يموتَ ممـــاتَ الأنوف

جَهِّزُوا للعُلا مَركبـــا
ذَا شِـــراع
زَيِّنـــوا للردى منصبا
أضرموا ناركم فى القلاع [1]
وارفعوا عَلما فى خِضم طَما قد حوى عَدَما
لِلشـــجاع
غَنّ يا بَحرُ لحنَ الرَّدَى
رجِّعى يا قِـــلاع الصَّدى
رَدِّدى اليومَ آى الوَدَاع

هالى يا ربوع العـــلا
والجـــلال
هيكل المُصطفيْن الالى
برزوا فى الوغى والقتال
وأراقوا دما واستباحوا حِمى من عدوٍّ سما
فى النـــزال
مجّدى يا ذرى « وَلهـــلا »
مجـــدى البطل الأمثـــلا
زين أهل الوغى فى الرجال

---

(١) القلع : الشراع ، يجمع على قلوع وقلاع .

النشيد الخامس : وفاء

وَجْمةٌ خيَّمتَ على الأرجاء ... هَدأةٌ بعد فورة الضوضاء
كسكون جَهمٍ تلا إعْصاراً ... كظلام ألمّ إثْرَ ضياء

رجع القوم من وداع الأمير ... وركابُ الموت اختفى فى السعير
فعيونٌ حسيرة ووجوهٌ ... كالحات وأنفسٌ فى هدير

إيه ! لكن أين الأميرة أينا ؟ ... فقدت من غُرِّ الأعزّة زَيْنا
خفّفوا لوْعة الكآبة عنها ... إن جنسَ النساء أدمَعُ عينا

واصلُوا البحثَ فى البلاد زمانا ... دونَ جَدْوى فأينَ حلّتْ مكانا ؟
كيف غابت وأى سرٍّ طواها ؟ ... أين صارت ؟ ظل الورَى حيرانا

غيرَ أن الإله « أودن » يدرى ... بخفايا قد غيَّبتها وسِرّ
فهى فى « ولهلا » العلية تثوى ... نالت الخلد بالوفاء الأبرّ

حين حُمَّ القضاء لا رَيْبَ فيه ... طالباً زوجها الذى تفتديه
قد عرتها هواجس وشجون ... أسعرَتْ فى الفؤاد وحشة تيه

هل تخون الوداد تنقض عهدا ... لقرين قضت بظليه عهدا ؟
شاركته فى نِعْمة وبؤوسٍ ... قاسمته عزّاً رفيعاً ومجدا

أتراها تنسى الوصال وترضى ... ببعاد من المنية . أمضى
أم تُراها ضنينةً بحياة ... فى التياع ووحدة الروح تُقضَى

لم يكن ذاك شأنَ بنت القُرُوم ... من تبارَوْا فى كل مجد مَرُوم
غازلوا الموت باسمين خِفافاً ... وسَمَوْا فى العُلا سموّ النجوم

لم يكن ذاك خلقَها فى الإباء ... لم يكن ذاك أمرَها فى الوفاء
لم يكن ذاك فِعلها ، فلماذا ... لا تضمُّ الحِمام يوم اللقاء ؟

عقدتْ بكرَةٌ على الموت عزما ... وأسرَّت فى صدرها الأمر حزما
جَلدةً لا تعافُ وِرْدَ المنايا ... مع زَوْج يَعنو له الموت رغما

فاذا سُجِّىَ الأمير الحليلُ (١) ... فى ركاب له شَعُوبُ (٢) دليل
وتعالى الضجيج بين جموع ... شُغِلت بالحِمام — وهو جليل —

دَلفتْ فى مَسرَّة [illegible]كون ... نحو عُرْس مُهيَّأ للمَنُون
وثوت فى سفينة ا[illegible] تبغى ... رِفْقةَ الزوج — شأنَ زوج حنون

صَعِدَت نحو « و[illegible] رُوحان ... فى اوار اللهيب تصْطحِبان
طابَ مَثْواكما بدار خلودٍ ... بين جَمع الأبطال والشُّجعانِ !

هللى يا ربوع العلا
والجلال
هيكل المصطفين الالى
برزوا فى الوغى والقتال
وأراقو دما واستباحوا حمى من عدو سما
فى النزال
مجدى ياذرى « ولهلا »
مجدى البطل الأمثلا
زين أهل الوغى فى الرجال

[بغداد] ميربصرى

(١) الحليل : الزوج . (٢) شعوب : الموت .